الفصل السادس:
بداية التكاثر السعيد لبنى آدم عليه السلام

قضى آدم وحواء عليهما السلام في الجنة فترة هامة من حياتهما، تعتبر فترة إعداد واختبار وتعلم[1]. عرف فيها كل منهما كيف يعيش على وجه الأرض التي قدر عليه أن يهبط إليها، مع أولادهما من البنين والبنات. يعرف كل منهم الخير والشر، والحسن والقبيح، والصواب والخطأ، والصالح والأصلح وغير ذلك من المعايير الدنيوية المتباينة التي تنفعه في دنياه وآخرته. ويتخير أيا منها بإرادته الحرة التي سوف يحاسب عليها في الآخرة، حسب ما يقتضيه قول العلى الكبير سبحانه{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾} [الزلزلة: ٧].

لم تكن هذه الفترة التي قضياها في الجنة إذن فترة إخصاب وجماع وإنجاب على الوجه الغالب ولم يكن أمر الجماع والإنجاب قد وضح لهما بعد. ولم تخطر فكرة الجماع والإنجاب في خلدهما في هذا الوقت بدليل أن عين كل منهما لم تقع على عورة الآخر. وقد ستر الله جل جلاله عورتهما بنور ربانى وضاء يحجب رؤية ما يكون خلفه[2].

وقد اقتضت إرادة الله عز وجل ألا يرى كل منهما عورة الآخر، إلا بعد أن أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما في الجنة عن الأكل منها. فعندئذ وقعت عين كل منهما على عورة الآخر. وفزعا من هذا

(1) ص161 من كتاب الإنسان في القرآن الكريم - للدكتور السعيد عاشور.
(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير الآية 22من سورة الأعراف ص198من الجزء الثانى.

الأمر وأخذا يقطفان من ورق الجنة ليخفيا ما ظهر من سوءاتهما. وهنا عاتبهما ربهما الكريم على عصيانهما له سبحانه، وطاعتهما لعدوه إبليس الذي زين لهما الأكل من هذه الشجرة ليهبطا معه إلى الأرض. وأحس كل منهما بالذنب فطلبا من الله العفو والمغفرة والتوبة. فتاب الله عليهما. وأمرهما بالهبوط إلى الأرض حتى يستطيعا بحرية تامة أن يمارسا ما يحلو لهما من الشهوات، وأولها شهوة البطن، وأن يمارسا الأفعال المتنوعة بإرادتهما التي منحها جل شأنه لهما في الدنيا، دار العمل والابتلاء والاختبار. وبعد انقضاء أجلهما ينتقلان إلى الدار الآخرة وأولها حياة البرزخ[1]. انتظارا للبعث والنشور والحساب ويحدث كل ذلك لذريتهما من البنين والبنات إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وحتى تتم إرادة الله الواحد الأحد في تعمير الأرض واستعمارها بالبشر وغيرهم من أدوات التعمير والإعمار - كان لابد أن يعرف آدم عليه السلام الجماع، ليجامع حواء، حتى تنجب أولادا وبنات يساهمون في عمارة الكون. ومن المؤكد أن آدم عليه السلام تعلم الجماع وكيفيته عن طريق الإلهام من الله تعالى. فهو سبحانه مصدر كل علم يتعلمه آدم وحواء. ولا يشترط لذلك أن ينزل إليه ملك يعلمه طريقة الجماع، ثم يعود إليه بعد ممارسته له حتى يطمئن إلى تلك الممارسة، كما ورد في بعض الآثار التي أنكرها العلماء[2]. وعلى أية حال، فقد جامع آدم زوجته حواء. وقد اقتضت إرادة الخالق العظيم أن تلد حواء في كل بطن ذكرا وأنثى. ولم يكن الذكر يتزوج

(1) حياة البرزخ: حياة القبر

(2) ومن ذلك حديث سعيد بن ميسرة الذي أنكره العلماء ص21من قصص الأنبياء - لابن كثير تحقيق أبى عبد الله الأنصارى.

الأنثى التي ولدت معه في ذات البطن. " وكان يُزَوَّجُ الذكرُ مِنْ هذا البطن الأنثى من البطن الآخر. فلما أراد آدم عليه السلام أن يزوج قابيل أخت هابيل، ويزوج هابيل أخت قابيل[1]، رضى هابيل، وأبَى قابيل، لأن توأمته كانت أجمل. فقال لهما آدم: قَرِّبَا قربانا فمِنْ أيِّكُمَا تُقُبِّلَ تزوجها. وكان قابيل صاحب زرع فقرب أرذل ما عنده، وكان هابيل صاحب غنم فقرب أحسن كبش عنده. فَتُقُبِّلَ قربان هابيل، بأن نزلت نار فأكلته. فازداد قابيل حسدا وسخطا وتوعد هابيل بالقتل " [2]. ففى أول زواج يتم على وجه الأرض حرص آدم عليه السلام أن يتم باختيار سليم سعيد من ولديه هابيل وقابيل كل لزوجته. فأشار عليهما بتقديم القربان عندما رفض قابيل الزواج من توأمة هابيل. ولا شك أنهما إن أطاعا أباهما آدم عليه السلام فإنهما يكونان بذلك قدوة حسنة، لبنى آدم جميعا. فسلوك آدم عليه السلام في الالتجاء إلى الله عز وجل، وحثه ولديه قابيل وهابيل على فعل ذلك - هو أحسن طريق يوصل أبناء آدم وبناته إلى الأمان والسعادة، في كل ما يعترضهم من مشاكل وصعاب.. وإذن فالأولى والمضمون للسعادة بين أفراد الأسرة يتمثل في اللجوء إلى الله العلى القدير، والتماس العون منه لاختيارالزوجة المناسبة. ويمكن أن يتم ذلك الآن عن طريق الاستخارة كما ورد في السنة النبوية الكريمة.

وتقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل من قابيل. فغضب قابيل أشد الغضب وتوعد أخاه هابيل بالقتل، كما سبق، وكانت حجته أن أباه آدم دعا الله تعالى أن يتقبل قربان هابيل ولم يدعه سبحانه بتقبل

(1) هابيل وقابيل هما أول من أنجبهما الأبوان آدم وحواء. وكانت مع كل توأمة له ولدت معه من ذات البطن.

(2) الكشاف484/1والقرطبى134/6، وانظر أيضا ص17 من كتاب صفوة التفاسير - القسم الثالث - الطبعة الأولى - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى.

قربان قابيل[1]. وعندما رد هابيل على حجة أخيه بأن الله يتقبل ممن يتقيه، ولا يتقبل ممن يعصيه - اعتقد قابيل عند ذلك أن أخاه هابيل يتهمه بالعصيان فازداد غضبه، وأصر على قتل أخيه عندما تحين الفرصة.. وفى أول استجابة من بنى آدم لنزغة الشيطان الرجيم على وجه الأرض - قتل قابيل هابيل، ناسيا أن السعادة كل السعادة تكون بطاعته لأبيه آدم الذي وجهه من أول الأمر الوجهة الصحيحة التي يرضى عنها الله عز وجل. وهى الزواج من توأمة أخيه هابيل. وكان على قابيل أن يفعل ذلك وخصوصا بعد أن تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل قربانه. ولو فعل قابيل ذلك لأحس بالسعادة الحقيقية. لكنه لم يدرك أن السعادة تكون بطاعة الله والوالد، ولا تكون بالقتل وسفك الدماء. وقد ندم قابيل على فعلته. وأحس بأنه من الخاسرين حيث لم يطع الله ولم يطع أباه.

ويقول ربنا العظيم في هذا الشأن: {وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾} [المائدة: ٢٧ - ٣١]..

ولم يشعر قابيل بالسعادة رغم تزوجه من البنت الأجمل وهى توأمته. وذلك لأنه لم يدرك أن الجمال الجسدى ليس هو المصدر الوحيد للسعادة. بل لابد من القناعة والرضا بما قدر الله وقسم له

(1) ص36من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبى عبد الله الأنصارى.

ولأخيه.

وقد " ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعُلّقت ساقُه إلى فخذه، وجُعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت؛ تنكيلا به وتعجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه " [1]. وما قاله مجاهد رضى الله عنه يعتبر تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم، والخيانة والكذب، وإنَّ أعْجَلَ الطاعة ثوابا لَصِلَةُ الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة، فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم إذا تواصلوا**ـــ [2].

وقد ورد في السنة النبوية الكريمة مايشعر بأن قابيل شريك لكل قاتل يقتل غيره ظلما، ومن ذلك قول الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سَنَّ القتل**ـــ [3]...

وتوالت ذرية آدم وحواء، عليهما السلام، بعد قابيل وهابيل وأختيهما، من البنين والبنات. وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم: أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدا في عشرين بطنا " قاله ابن إسحاق وسماهم والله تعالى أعلم.. وقيل مائة وعشرين بطنا في كل واحد ذكر وأنثى، أولهم قابيل وأخته (فليما)، وآخرهم عبد

(1) ص39من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تعليق أبى عبد الله الأنصارى.
(2) رواه الطبرانى ص131من كتاب مختار الأحاديث النبوية، للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمى.
(3) ص38من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبى عبد الله الأنصارى.

المغيث وأخته (أم المغيث). وذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة " والله أعلم[1]... وكان كل هذا الإنجاب - كما سبقت الإشارة - على أساس سماوى يضمن السعادة لكل زوجين ولكل أسرة تنشأ في هذا الإطار..

* * *

(1) ص40من المصدر السابق.